عمر التميمي

قراءة في نظرية المعرفة «الإبستيمولوجيا» الصهيونية من خلال كتابات يهودا شنهاف شهرباني

يهودا شنهاف شهرباني. اليهود العرب: قراءة ما بعد كولونيالية في القومية والديانة والإثنية. ترجمة ياسين السيد. رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية؛ مدار. ٢٠١٦. ٣٧٢ صفحة.

في إشكالية التسمية، وأهمية الكاتب

كثيرة ومتداخلة هي الدراسات والأدبيات التي تتحدث عن اليهود الشرقيين، وتحاول تقديم صورة عنهم، قبل وبعد مجيئهم إلى إسرائيل. ذهب كثيرون في تعريفهم ليهود الشرق، إلى إطلاق تسميات متشابهة عنهم، يقول شلومو سفيرسكي: «إن الجمهور الإسرائيلي بشكل عام وعلماء الاجتماع بشكل خاص، يطلقون عادةً على هؤلاء اليهود «الجماعة أو الجالية الشرقية»-(عيدوت همزراح، مزراحيم)».[1] في الجانب الآخر يذهب البعض إلى تقديم صورة مغايرة ومناقضة للفهم الرائج في الأوساط الأكاديمية الإسرائيلية، تحاول التشكيك والتصدي لنظرية المعرفة الصهيونية.

يؤكد البروفسور في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في جامعة تل أبيب، والباحث في معهد فان لير يهودا شهرباني، على أهمية التسمية «اليهود العرب»، لقناعته بأن الكينونة العربية لدى اليهود العرب تم التحايل عليها وطمسها، من خلال ما يسميه «القومية المنهجية»، التي سنعرّج عليها خلال هذه المراجعة. ومع أنه يعتقد بأن مفهوم اليهود العرب هو مفهوم غامض وتشويه الريبة والحيرة (ص ٣٧)، خاصة بسبب الشرخ في العلاقة اليهودية العربية، إلا أن التاريخ والعادات والثقافة التي اشترك بها الطرفان لا يمكن إغفالها. مستندًا على مقاربة ماكس فيبر «الاحتماليات الموضوعية»، في مَعرِض تفنيده للقومية المنهجية، يؤكد شهرباني

يصف شهرباني الكتابات في الأوساط الأكاديمية الإشكنازية أمثال حنة أرندت، وغيرها ممن كتبوا عن اليهود الشرقيين، والتي كانت بمجملها تحمل أوصافًا انطلاقًا من مركزانيتهم الأوروبية، باعتبار أولئك اليهود العرب، أشخاصا غير متحضرين ولا يمتلكون الثقافة التي يمتلكها اليهودي الغربي، فتصفهم خلال «محاكمة إيخمان» بأنهم مجموعة من اليهود الشرقيين «الرعاع» لا يطيعون الأوامر ولا يظهرون بمظهر لائق.

على أن فكرة نزع اليهود من كينونتهم العربية، يميط اللثام عن الممارسات المتناقضة التي تكتنف الأيديولوجيا الصهيونية، والتي حاولت الحفاظ على كينونتها الأوروبية، والشخصية اليهودية في آن واحد.

تذكرة العبور للصهيونية: اليهود الشرقيون باعتبارهم مخزونًا للخبرة

يستهل شهرباني كتابه بعنوان «التاريخ يبدأ من البيت»، منتقلًا فيه من التاريخ الشخصاني إلى التاريخ الجمعي، كما ويقوم بالإضاءة على جوانب عديدة من حياة أسرته، مع وصول أبيه لفلسطين وعيشه فيها. يجد شهرباني بأن اختلاف اللكنة ونمط الحياة، كان مؤثرًا في علاقته مع أولاد الحي المحيط، لكن وبعد تجنيد والده في الاستخبارات الإسرائيلية، والتي اعتبرها تذكرة العبور الرابحة لدخول المجتمع الإسرائيلي، اختلف معها كل شيء (ص ٢٨). نجد هنا مفارقة واضحة وكاشفة، فنوردو يقول: «إن اليهودي الغربي الذي خرج من عزلته في الجيتو، تأمل أن يلقى ترحيبًا وقبولًا في المجتمع الذي يعيش فيه، لكنه أصيب بخيبة أمل».[٢] نعتقد بأن ما حصل مع اليهود الغربيين في مواطنهم الأصلية، والذي نجده متجليًا في كتابات المؤرخين اليهود الأوائل، من تغيُّر في مظاهرهم وطرق معيشتهم، حتى يتم تقبلهم داخل المجتمع الأوروبي، يعاد إسقاطه مرةً أخرى على اليهود العرب الذين استجلبوا إلى فلسطين، أو في اللقاءات التي حصلت بينهم وبين المبعوثين اليهود، الذين ذهبوا إلى العراق وعبدان وغيرها من البلدان التي يقطنها اليهود الشرقيون، تحت المظلة الكولونيالية البريطانية من خلال شركة «سوليل بونيه».

يروي شهرباني بأن جده سافر إلى فلسطين عدة مرات، لكنه لم يبق فيها وعاد إلى العراق (ص ٢٧)، وحاله كالكثيرين من اليهود العرب الذين غادروا فلسطين، بعد رؤيتهم للتشكيلة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تُفرَض على اليهودي العربي (نتحدث هنا عن الفترة التي سبقت أزمة الديمغرافيا الصهيونية)، وتحاول إعادة تعريف تشكيلته بكونه يهوديًا أوروبيًا من خلال المنظور الكولونيالي الغربي، الذي عرّفت الصهيونية نفسها من خلاله. يذهب فرانز فانون في إشكالية الضحية والجلاد إلى أبعد من ذلك فيقول: «كيف يمكن للمضطهَد أن يتحول إلى مضطهِد جديد لضحية أخرى، أداة الجلاد المضطهِدة، والضحية المتماهية بالجلاد، والمتحولة بدورها إلى جلاد آخر».[٣] وبذلك يصبح إدراك اليهودي الغربي للمعاناة التي عاشها كضحية، عبارة عن عملية إعادة إنتاج للأداة التي استخدمت ضده، ولكن في هذه المرة فالضحية مختلفة «اليهود الشرقيون».

يأخذ مفهوم الهيمنة في هذه الحالة طابعًا آخر في كتابات جرامشي «سيادة طبقة واحدة على بقية طبقات المجتمع، وهيمنة طبقة ما على المجتمع تعني أنَّ هذه الطبقة تتولى القيادة والسيطرة على بقية طبقات المجتمع»[٤] وبالتالي؛ فالصراع هنا يصبح أداةً للهيمنة وفرض السلطة، ويأخذ منحاه البنيوي، ليتحول إلى الأداة التي استخدمتها الصهيونية الإشكنازية «لصهر وتطويع» غيرها من مكونات المجتمع الناشئ. يسقط فانون مراوغة سارتر الشهيرة التي يقول فيها «إن المعادي للسامية هو من يصنع اليهودي»،[٥] على حالة السود والبيض، ويقول بأن «الرجل الأبيض نفسه هو الذي يصنع الرجل الأسود»،[٦] وبذلك فمنظومة أفكار الرجل الأبيض أو معاداة السامية، لم تكونا موجودتين لولا وجود النقيض المباشر لهما.

في خضم هذه العلاقة الديالكتيكية، نستطيع القول بأن السجال الصهيوني وحالة الهيمنة الإشكنازية على المزراحيم، ما كانت لتكون موجودة، لولا وجود المزراحيم وتشكيلهم عاملاً أساسيًا في البناء الحداثي للدولة وتشييد مؤسساتها. ايضًا لا يمكن فهم حالة المحو الاجتماعي الذي مورس عليهم سوى بفهم البنى الأيديولوجية التي عملت الصهيونية وتشكلت من خلالها،

يؤكد الكتاب على فكرة مفادها بأن أهداف شركة سوليل بونيه لم تكن اقتصادية كما تدّعي الصهيونية، بل كانت أبعد من ذلك فذهبت إلى كونها شركة تحمل المصالح الكولونيالية البريطانية، بالإضافة للآخر المهم والذي سيتم التركيز عليه، الشخصية القومية الصهيونية التي كانت تصبغ توجهاتها، والتي تجسدت باسم «خطة المليون يهودي» (ص ٧٠).

وحالة الإدماج الثقافي التي أرغمت اليهودي العربي على التماهي ضمن تلك الثيمة العامة المفترضة سلفًا. تحاجج إيلا شوحط بأن: « الصهيونية تزعم أنها حركة تحرر لجميع اليهود، ولم يوفر الأيديولوجيون الصهيونيون أي جهد في محاولة جعل تعبيريْ «اليهودي» و«الصهيوني» مترادفين، فعلياً. لكن الصهيونية، في الواقع، كانت، أساساً، حركة تحرر لليهود الأوروبيين (وهذا الأمر كما نعلم مشكوك فيه)، وبصورة أكثر دقة لتلك الأقلية الصغيرة من اليهود الأوروبيين القاطنين بإسرائيل فعلاً. ومع أن الصهيونية تزعم أنها تقدم وطناً إلى جميع اليهود، فإن ذلك الوطن لم يُقدّم إلى الجميع على المستوى نفسه. فقد جيء باليهود المزراحيم في البداية إلى إسرائيل لأسباب صهيونية ـ أوروبية خاصة. ثم جرى التمييز بحقهم، بصورة منهجية، من قبَل الصهيونية التي بذلت طاقاتها ومواردها المادية، بصورة مميزة، لمصلحة اليهود الأوروبيين الدائمة، وللأذى الدائم لليهود الشرقيين».[٧]

حتى فترة ما قبل «الهولوكوست»، وأحداث روسيا، والنكبة، نظرت الصهيونية لليهود العرب بشكل يشوبه الغموض وعدم الجدية، وذهبت إلى اعتبارهم مخزونًا استخباراتيًا مهمًا، كونهم يتحدثون العربية بطلاقة ومظهرهم يشبه المظهر العربي، فيقول شهرياني: «تم توظيف اليهود العرب في الدولة باعتبارهم ضربًا من ضروب الخبرة» (ص ٣٢)، وبهذا لا يبدو مستغربًا أن تكون نسبة اليهود الشرقيين في فلسطين من عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٤٨ لم تتجاوز ١٣٪ في حين كان الإشكناز يشكلون ٨٧٪ من هذا المجتمع، ويعود ذلك لعدم وجود أي جهد منظم من قبل الحركة الصهيونية لتجنيدهم كما فعلت مع يهود أوروبا.[٨] بعد الأزمات التي واجهتها الصهيونية في صراعها الديمغرافي مع الفلسطينيين، تعود مرة أخرى للنظر بشكل جدي لليهود العرب كمخزون ديمغرافي مهم، من خلال «خطة المليون شخص» التي عمل عليها بن غوريون، والتي سنبينها ونتحدث عنها بإفاضة خلال هذه المراجعة.

يصف شهرياني الكتابات في الأوساط الأكاديمية الإشكنازية أمثال حنة أرندت، وغيرها ممن كتبوا عن اليهود الشرقيين، والتي كانت بمجملها تحمل أوصافًا انطلاقًا من مركزانيتهم الأوروبية، باعتبار أولئك اليهود العرب، أشخاصا غير متحضرين ولا يمتلكون الثقافة التي يمتلكها اليهودي الغربي، فتصفهم خلال «محاكمة إيخمان» بأنهم مجموعة من اليهود الشرقيين «الرعاع» لا يطيعون الأوامر ولا يظهرون بمظهر لائق (ص ٣٣). ومن الواضح بأن النظرة الاستشراقية التي صاغتها أوروبا عن الشرق، والتي تجلى نقدها في كتابات «إدوارد سعيد»، تمت إعادة تعريفها وتوجيهها مرة أخرى لكن في سياق آخر يطلق عليه «الاستشراق اليهودي».

يمكن للمتفحص جيداً لنظرية المعرفة الصهيونية، فهم العلاقات المتداخلة والمتشابكة فيها، فالصهيونية قامت بتشكيل مجموعة من المعايير والمحددات في رزمة واحدة، إذ لا يمكن أن تكون صهيونياً إلا من خلالها، يذهب شهرياني إلى اعتبارها مثلثًا يرتكز على ثلاثة أعمدة رئيسية (الدين، القومية، الإثنية) (ص ٤٣)، هذه العناصر الثلاثة ليست منظومات مغلقة ومنفردة كلٌ بذاته، بل إنها تخضع لعملية من التهجين المستمر، من خلالها تتشكل المنظومة المعرفية الصهيونية وتبني نفسها. يحاول شهرياني فهم الكيفية التي تعمل من خلالها هذه المنظومة، فيسقط مفهوم «الاستنطاق» لدى ألتوسير، والذي تكون فيه الأيديولوجيا محددًا لتجنيد الأفراد وتحويلهم إلى ذوات فاعله داخلها (ص ٥١) ، إذ لا يمكن للمتدين الدخول ضمن تلك «الرزمة» إلا من خلال اكتسابه الهوية القومية، كما أن العلماني من المحتم عليه إبرام علاقة مع اللاهوت السياسي والتماهي معه، واليهودي من أصول عربية يتوجب عليه التخلي عن كينونته العربية باكتساب الهوية القومية الدينية، حتى يكون جزءًا من هذه التشكيلة الإبستمولوجية الصهيونية. وإذا ما أردنا مقاربة ذلك مع قانون القومية الذي صدر مؤخرًا في إسرائيل، فإن هذا القانون يقوم على مقاربة إثنية/دينية/قومية لتعريف الدولة، بحيث إن الإجابة عن سؤال، ما هي إسرائيل؟ لا تعتمد على إجابة سؤال من هو الإسرائيلي؟ أي أنه تم إقصاء نموذج المواطنة المدنية الذي كان مقصىً أصلاً في الممارسة اليومية، بشكل رسمي، مقابل الانحياز إلى تعريف

على الرغم من كل ما حصل، أُصيبَت المنظمة الصهيونية بخيبة أمل، فيهود العراق كوّنوا ذاكرة مؤقتة عن المذبحة، ولم تؤدِ إلى تحفيزهم على الهجرة. يقول حاخام البصرة لأحد المبعوثين الصهاينة: «لم يخرجنا عزرا ونحميا من هنا. ما القوة التي تمتلكها أنت لتأتي بها إلينا» (ص ٩٢).

الدولة/الأمة على أساس الامتياز الذي تحظى به فئات محددة داخل المجتمع، وبالتالي فالأشخاص الذين لا يندرجون ضمن تلك الرزمة، لا يتم التعامل معهم أكثر من كونهم سكانا من الدرجة الثانية، ويعاملون معاملة خاصة.

يذهب شهرباني في تحليله لهوية العربي اليهودي في السجال الصهيوني، إلى طرح منهجيتين مختلفتين، الماهوية والنيو-ماركسية (ص ٤١) ، تصفهم النظرة الماهوية كظاهرة طبيعية تضرب جذورها في اليهود العرب وثقافتهم العربية، بينما ارتكزت النيوماركسية على المحددات الطبقية، والصراع المادي على سبل الحياة، وسوق العمل، ومكان الإقامة، وفي كلتا الحالتين يذهب شهرباني للقول بأن كل واحدة تعاني من «عمى ذاتي متأصل» (ص ٤١). تجاهلت المنهجية الأولى الهياكل الأيديولوجية ضمن الدولة اليهودية، التي تشكل هوية الأفراد وتعمل على قولبتهم داخلها، بينما أغفلت الأخرى أصولهم العربية ونفت تاريخهم، واعتبرتهم جزءًا لا يمكن فهمه خارج الهوية الطبقية. إذا ما ذهبنا لاقتباس صبري جريس عن سيركين والذي يقدم من خلاله تقييمًا للفكرة الصهيونية بقوله: «إن الصهيونية باعتبارها حركة اليهود البناءة، لا تتعارض مع صراع الطبقات، بل تقف فوقه. وتستطيع كل الطبقات اليهودية قبولها، دون الاهتمام بالفوارق بينها.»[9] وبالتالي فموقف سيركين يذهب في اتجاه ينفي فيه التوجه النيوماركسي، ويتقاطع مع كلا التوجهين، باعتبار الصهيونية محددًا ثابتًا لا يتغير، ومتجاهلًا كينونة اليهودي العربي، والمحددات الأخرى التي قامت الصهيونية من خلال أجهزتها بعملية محو وتذويب لها.

حالة عبدان، باعتبارها اللقاء المنهجي الأول بين يهود الشرق ويهود الغرب:

عبدان، هي مدينة تقع على الحدود العراقية الإيرانية، في الجانب الإيراني، تمت إعادة مفهمتها كمستوطنة على يد كتيبة العمال التي تتبع شركة «سوليل بونيه» للمقاولات. شكلت هذه المنطقة الهجينة، مركزاً لفهم العلاقات المتناقضة والمتكاملة في الوقت ذاته، بين سياق كولونيالي بريطاني، وسياق صهيوني قومي، وتداخُل في العلاقات بين اليهود العرب، واليهود الأوروبيين الذين قدموا كمبعوثين في شركة سوليل بونيه، تحت مظلة كولونيالية بريطانية. فلا هي تقع ضمن حدود الوطن القومي، ولا هي جزء من «المنفى»، لم يسموها «ييشوف» ولم تعتبر «جيتو»، إذا صح التعبير فهي تشكل مستعمرة هجينة. يقول شهرباني بأن حالة عبدان كانت هي اللقاء المنهجي الأول بين الطرفين، على الرغم من حصول لقاءات أخرى سابقة إلا أنه اعتبرها لقاءات عابرة (ص ٥٧)، وبذلك شكلت عبدان المبدأ التاريخي أو نقطة الصفر لدى ميشيل فوكو، على اعتبارها البداية لبلورة علاقة مباشرة بين اليهود العرب والصهيونية.

يؤكد الكتاب على فكرة مفادها بأن أهداف شركة سوليل بونيه لم تكن اقتصادية كما تدّعي الصهيونية، بل كانت أبعد من ذلك فذهبت إلى كونها شركة تحمل المصالح الكولونيالية البريطانية، بالإضافة للآخر المهم والذي سيتم التركيز عليه، الشخصية القومية الصهيونية التي كانت تصبغ توجهاتها، والتي تجسدت باسم «خطة المليون يهودي» (ص ٧٠). جرت هذه المحطات المهمة بالتحديد بين عام ١٩٤١-١٩٤٥ ، هذه الفترة التي أقوم بتسميتها «أزمة الديمغرافيا الصهيونية» بحيث إن أحداث «الهولوكوست» وما جرى من حجر لليهود في روسيا، وترافُق ذلك مع آثار حكم فيشي ١٩٤٠-١٩٤٢، والتغير العنيف في العلاقة مع فرنسا، وتراجع الألبانس عن سياساتها الموالية لفرنسا،[10] جعلت القيادة الصهيونية تصبح على قناعة، بأن المخزون الديمغرافي الأوروبي الذي كان يعول عليه لم يعد كذلك، وبهذا يصبح السكان اليهود العرب هم محط الاهتمام، وتبدأ المساعي لجلبهم إلى فلسطين.

إذًا، شكلت عبدان مكانًا تتوحد فيه العناصر جميعها معًا، لتشكل مركبًا تم تهميشه في كتابات الصهاينة، بما يسميه شهرباني «الظاهراتية الكولونيالية» (ص ٦١)، فمن جهة هناك استعمار بقيادة بريطانيا، وفي المقابل النموذج القومي الصهيوني، يتفاعل كلاهما في عملية تشكيل لهوية اليهود العرب، وفي الوقت ذاته يتناقضان، فالنموذج الكولونيالي يصفهم كشرقيين، بينما يذهب النموذج القومي لاعتبارهم جزءًا

يذهب النشاط الكولونيالي التقليدي إلى الادعاء، بأنه يحاول تمدين وتحضير السكان الأصلانيين، لكن في حالة عبدان فالكولونيالي الصهيوني والأصلاني يشتركان في ديانة واحدة، ولفهم ذلك؛ كان من المحتم عليه إسقاط «المشهد الإثني» في كتابات أبادوراي، والذي من خلاله تفهم الإثنية في سياق غير متجانس من الهويات، لتتشكل في اتجاه يعيد بلورتها.

من التشكيلة اليهودية الأصيلة، وبينهما يظهر محدد ثالث «الاستشراق اليهودي» الذي يأخذ طابعه من «الكينونة الصهيونية الإشكنازية»، ليسقط عليهم سمته ونموذجه الأوروبي ويحاول محو غيريتهم، لكن مع ذلك يبقى النموذج الكولونيالي، هو الإطار الحامي للنموذج القومي الصهيوني.

يقول شهرباني «تمثل الصهيونية الابنة المتبناة للدولة الكولونيالية الأم، بريطانيا» (ص ٧٥)، وبذلك يتفق مع صبري جريس في طرحه، الذي يرى بأن الفكرة الصهيونية قامت بتجسيد نفسها في ظل ظروف تكاد تكون مثالية، وخاصة عندما تكون في حماية إمبراطورية كبريطانيا، أعتى امبراطوريات تلك الفترة.[١١] لكن وفي اتجاه آخر، أطلق إيلان بابيه على ذلك تعبير «الكولونيالية المزدوجة» (ص ٧٧)، يجد بأنه على الرغم من وجود حالة توافق وانسجام، إلا أنه كان يشوبها في أحيان كثيرة الصراع والتناقض والعداء، والتي قامت الصهيونية بتجاوزه من خلال اتباع استراتيجية «ضبط النفس» في فلسطين، أو من خلال مشروع عبدان، الذي حيد الخصومة بإطار اقتصادي شكل رصيدا من المنفعة والتعاون بين الطرفين.

عام ١٩٤٢، وفي اجتماع ضم كبار القادة الصهاينة وعلى رأسهم بن غوريون (ص ٧٠)، يخاطب الأخير بقية القادة في حديثه عن خطة المليون يهودي، ويستجلب الخطاب الصهيوني الذي وُجه ليهود أوروبا، خطر اللاسامية والمحو اليهودي، ويعيد توجيهه بصورة مختلفة لليهود في الشرق، ويحذر من مخاطر الهاجس العربي التي باتت وشيكة، وبأنه يجب ضم اليهود في المناطق الشرقية على وجه السرعة، حتى لا يتم استئصالهم بالوسائل الهتلرية نفسها. لكن مرة أخرى، وفي السجال داخل الأوساط الصهيونية آنذاك، تعود عقلية المستشرق اليهودي، ويعارض مجموعة من أعضاء المجلس التنفيذي في الوكالة اليهودية، على اعتبار أن ضم اليهود العرب في فترة حساسة كهذه يمكن أن يؤدي كما يقول فيرنز دافيد، إلى زعزعة «القيمة النوعية» لليهود في فلسطين.

وفي سياق الشعور المتولد لدى الصهاينة بضرورة استجلاب اليهود من الدول العربية والإسلامية، حصلت حادثة شهيرة عام ١٩٤١ سميت «حادثة الفرهود»، والتي كانت فرصة جوهرية لكل من التوجه القومي الصهيوني والتوجه الكولونيالي، سيتم استغلالها، بما يخدم مصالح كل منهما. يقول خلدون البرغوثي: «بريطانيا حاولت أن تحمّل الوطنيين العراقيين والدعاية النازية مسؤولية هذه الحادثة، أما الحركة الصهيونية فاستغلت الحادثة لتحريض يهود العراق على الهجرة إلى فلسطين».[١٢] أدت هذه المذبحة إلى تكثيف النشاط الصهيوني في العراق، بمساعدة من شركة سوليل بونيه التي كانت تعمل هناك، وباشروا في محاولاتهم الحثيثة من خلال «منظمة هموساد لعلياه ب» وإرسال المجلس القومي مبالغ من النقود لأبناء الطوائف اليهودية في العراق (ص ٨٩)، ومع ذلك، وعلى الرغم من كل ما حصل، أُصيبَت المنظمة الصهيونية بخيبة أمل، فيهود العراق كوّنوا ذاكرة مؤقتة عن المذبحة، ولم تؤد إلى تحفيزهم على الهجرة. يقول حاخام البصرة لأحد المبعوثين الصهاينة: «لم يخرجنا عزرا ونحميا من هنا. ما القوة التي تمتلكها أنت لتأتي بها إلينا» (ص ٩٢)

ولأن علاقة العراقيين، وخصوصا اليهود العرب، مع بريطانيا لم تكن في أفضل حالاتها، وخصوصا أن اليهودي العربي يعرّف نفسه على أنه ذلك الآخر المختلف عن البريطاني الأوروبي، ذهبت كتيبة العمال التي اتخذت طابعها الغربي، إلى المراوغة ما بين النموذجين الغربي والقومي الصهيوني، بالإضافة إلى إسقاط العامل الديني، بكونهم أمة واحدة.

من فوكو إلى أبادوراي: المادة البشرية، وكيف يصبح الحيز مكونًا «هتروتوبيًا»؟

يذهب شهرباني في وصفه للمنظومة الصهيونية، إلى القول بأنها تركيبة لا تخلو من سمتها الكولونيالية كمحدد بحثي في إطار تاريخي، لكن المختلف في حالة الحيز الهجين «عبدان» أن الصهيونية تعاملت معه على نحو مختلف، وبإسقاطه لمفهوم الأماكن المغايرة «الهيتروتوبيا» لدى فوكو، استطاع شهرباني

تقديم صورة أكثر وضوحًا عن هذا الحين، فهو ليس مكانًا متخيّلًا وطوباويًا، بل إنه مكان موجود في الواقع، لكنه متناقض لدرجة أنه مكان في اللامكان، فهو لا يقع ضمن الدولة الأم «إسرائيل» ولا يصنف كـ «منفى». وبهذا اجتمعت به تزمينات متباعدة، من الزمن الأوروبي إلى الزمن المحلي والصهيوني والكولونيالي، لتشكل معًا حيزًا به من التناقض ما يفسر طبيعة عمل المنظمة الصهيونية في تلك المنطقة، وطبيعة الخطاب المعلن.

يذهب النشاط الكولونيالي التقليدي إلى الادعاء، بأنه يحاول تمدين وتحضير السكان الأصلانيين، لكن في حالة عبدان فالكولونيالي الصهيوني والأصلاني يشتركان في ديانة واحدة، ولفهم ذلك؛ كان من المحتم عليه إسقاط «المشهد الإثني» في كتابات أبادوراي، والذي من خلاله تفهم الإثنية في سياق غير متجانس من الهويات، لتتشكل في اتجاه يعيد بلورتها. وفي حالة النزعة القومية التي شهدها العصر الحديث، أصبحت القومية محدداً من خلاله يعاد تشكيل الإثنيات، وهذا ما جعل المهمة الصهيونية في عبدان، تذهب للدخول في صدام مباشر ليس فقط مع الفكر الشرقي المختلف مع فكر الرجل الأبيض، بل أيضاً مع المنظومة القومية العربية التي كانت قد شكلت اليهود العرب ووسمتهم بسمتها.

كان الوضع في فلسطين مشابهًا تمامًا، لكن في سياق مختلف، فما كان يعتبر عائقًا في عبدان، أصبح المحدد الرئيسي لخلق المجتمع الصهيوني الجديد، فالرؤية القومية التي اعتبرت مشكّلاً وحيزاً لفهم الإثنيات، والتي من خلالها نجحت الصهيونية في احتواء وتطويع المهاجرين الجدد، أصبحت المكان الذي يتم فيه تشكيل هوية اليهودي الجديد. يقول شهرياني: «لم تستقبل إسرائيل الإشكنازيين والمزراحيين، وإنما أنتجتهم» (ص ١١٢)، وبالتالي تصبح عملية تشكيل الهوية، هي سلسلة من عمليات الشرقنة، التي تجعل جماعة تصعد على حساب جماعة أخرى، وتصبح القادرة على تحويل المسار الهوياتي بما يخدم مصالحها. وبناءً على ذلك، ما ميز عبدان عن الدولة الأم، كونها منطقة لم تخضع لعملية التشكيل والمسار الهوياتي ذاته الموجود في فلسطين، بل إن هذه المساحة، أصبحت مكانًا لتشكيل هوياتي من نوع مختلف ومعقد، لم يتم فقط على سكانها بل أيضاً على المبعوثين الصهاينة القادمين إليها، الذين تأثروا بعوامل كالمال ومهمة الشركة الاقتصادية، ما أدى لحصول نزاع في المراسلات بينهم وبين الدولة الأم، حول المهمة التي أوكلوا بها.

يذهب الأفراد داخل المنظمة الصهيونية للحديث عن المادة البشرية بشكل متوان، فبعدما كان الجدل المستمر عن المادة البشرية للسكان اليهود العرب، يتجه نحو نموذجين، أحدهما يعتبر الشرقيين مجرد مجموعة من الرعاع، ثقافتهم عربية وبحاجة لسنوات من التحديث لمواكبة الحضارة، كما يقول أربيه شيل: «اليهود هنا منحطون وعنيدون، يقال إنهم صهاينة، لكن هذا لا يمت للصهيونية بصلة» (ص ١٣٨)، بينما النموذج الآخر، الذي يجد فيهم الشعب اليهودي العتيق والأصيل، وبأنهم جزء من الأسباط العشرة التائهة.

اتخذ السجال اتجاهًا آخر، فبعد النزاع الذي نشب بين المبعوثون والمنظمة على أسباب اقتصادية–قومية، وبسبب التعقيد الذي واجهته الصهيونية في احتواء اليهود العرب آنذاك، بدأت بالحديث عن المادة البشرية التي ذهبت إلى عبدان، والقول بأنها مادة لا تصلح لتنفيذ المهام الموكلة إليها، في محاولة منها لتبرير الهوة الإثنية التي اصطدمت بها. وهذا يدل على الغموض الذي اكتنف العملية الصهيونية في عبدان وبقية المناطق العربية، والتداخل الكبير الذي أفضى إلى عدم وجود استراتيجية واضحة للتعامل مع سكانها اليهود العرب في تلك الفترة، وهذا إنما يميط اللثام عن جزء مهم من العلاقة (الصهيونية–اليهود العرب) التي لطالما تم تجاهلها في معظم الكتابات الأكاديمية الإسرائيلية.

ملاحظات واستنتاجات:

نعتقد بأن شهرياني، تمكن من تقديم فهم أشمل وأكثر وضوحًا للرواية الإسرائيلية الرسمية، واستطاع من خلال تقديم مجموعة من المقاربات لمنظرين سوسيولوجيين، وخصوصا المقاربات ما بعد الحداثية، تفكيك نظرية المعرفة الصهيونية، وتقديم فهم مغاير عن الفهم السائد في الوسط الأكاديمي الإسرائيلي، بالإضافة إلى تقديم منطلق جديد، يمكن من خلاله فهم السكان الشرقيين في «إسرائيل» في أيامنا، ومعرفة البنى الاجتماعية التي أحالتهم لما هم عليه الآن من تشكيلة اجتماعية وسياسية.

قمنا في هذا العرض بتقديم قراءة انتقائية من الكتاب، بالتركيز على الرواية الصهيونية، والنظرية الصهيونية، ومحاولة المحاورة سوسيولوجيًا بين شهرياني وباحثين آخرين. ما يتبقى من موضوعات داخل الكتاب، نعتقد بأنه يستحق القراءة والفهم، لما له من دلالات، تمكّن القارئ من فهم الوضعية التي عاشها الشرقيون، قبل وما بعد قيام الدولة الصهيونية. ولأهميته ليس فقط في السياق الإسرائيلي، بل أيضاً في سياقنا الفلسطيني والعربي ضمن النماذج المعرفية العديدة التي حاولت تفكيك وشرح الكيفية التي كتبت من خلالها الرواية الصهيونية.

الهوامش

١. شلومو سفيرسكي، الأكثرية اليهودية الشرقية (بيروت: دار الحمراء للنشر، ١٩٩١)، ص٧.

٢. أنيس الصايغ، الفكرة الصهيونية النصوص الأساسية، (ترجمة لطفي العابد) (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية مركز الأبحاث، ١٩٧٠)، ص١٥٧.

٣. احمد مصطفى جابر، «اليهود الشرقيون في إسرائيل: جدل الضحية والجلاد»، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، عدد ٩٢ (٢٠٠٤): ٣٠.

٤. عمر كامل، اليهود العرب في إسرائيل رؤية معرفية (ترجمة شيرين القباني)، (مصر: مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٨) ٦٦.

٥. نايجل سي غبسون، فانون المخيلة بعد-الكولونيالية، (ترجمة خالد ابو هديب)، (قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣)، ٥٥.

٦. غبسون، فانون المخيلة ...، ٥٦.

٧. إيلا شوحط،» اليهود الشرقيون في إسرائيل : الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها اليهود،» مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد٣٦ (خريف ١٩٩٨): ١٠٥-١٠٦.

٨. سفيرسكي، الأكثرية اليهودية ...، ١١-١٢.

٩. صبري جريس، تاريخ الصهيونية، الجزء الأول: التسلل الصهيوني الى فلسطين، ط٢ (فلسطين: مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، ٢٠١٥)، ٢٢٧.

١٠. احمد جابر، اليهود العرب والصهيونية قبل النكبة من اللامبالاة إلى الاستحواذ (حيفا: مدى الكرمل، ٢٠١٤)، ٢٠.

١١. صبري جريس، تاريخ الصهيونية، الجزء الثاني: الوطن القومي اليهودي في فلسطين (فلسطين: مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، ٢٠١٧)، ١١.

١٢. خلدون البرغوثي، «عرض لكتاب يهود العراق: تاريخ ترحيل جماعي،» مجلة قضايا إسرائيلية، عدد ٥٤ (٢٠١٤): ١٢٩.

المصادر والمراجع:

- البرغوثي، خلدون. «عرض لكتاب يهود العراق: تاريخ ترحيل جماعي.» قضايا إسرائيلية، عدد ٥٤ (٢٠١٤): ١٢٦-١٣٥.
- جابر، أحمد. «اليهود الشرقيون في إسرائيل: جدل الضحية والجلاد.» مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، عدد ٩٢ (صيف ٢٠٠٤).
- جابر، أحمد. اليهود العرب والصهيونية قبل النكبة من اللامبالاة إلى الاستحواذ. حيفا: مدى الكرمل، ٢٠١٤.
- جريس، صبري. تاريخ الصهيونية – جزآن. ط٢، رام الله: منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث، ٢٠١٥.
- سفيرسكي، شلومو. الأكثرية اليهودية الشرقية. بيروت: دار الحمراء للنشر، ١٩٩١.
- شهرباني، يهودا. اليهود العرب: قراءة ما بعد كولونيالية في القومية والديانة والإثنية (ترجمة ياسين السيد). رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية؛ مدار، ٢٠١٦.
- شوحط، إيلا. «اليهود الشرقيون في إسرائيل: الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها اليهود.»مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد٣٦ (خريف ١٩٩٨): ١٠٥-١٢٠.
- الصايغ، أنيس. الفكرة الصهيونية النصوص الأساسية (ترجمة لطفي العابد). بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث، ١٩٧٠.
- غبسون، نايجل. فانون المخيلة بعد-الكولونيالية (ترجمة خالد أبو هديب). الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣.
- كامل، عمر. اليهود العرب في إسرائيل رؤية معرفية (ترجمة شيرين القباني). الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٨.